رهانات التأسيس وأفاق الامتداد في الدرس الأدبي المقارن عربيا
جهود المقارن " سعيد علوش "- أنموذجا -

Bets of establishment and prospects of extension in the Arab literary comparative lesson
-Comparative efforts "Said Alloush" - a model -

د/كمال بن عطية*

أ.لباشرية خديجة♣

تاريخ الإرسال: 2019/10/04	تاريخ القبول: 2019/10/14	تاريخ النشر:2019/12/25

الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تبحث في جهود المقارن المغربي " سعيد علوش" ، إذ يعتبر من رواد الدرس المقارن في النقد العربي،متسلحا بدراسته المعرفية بتطور الأدب المقارن ومدارسه وامتداداته ولحظاته التأسيسية و إنتهاء بالأزمات التي مر بها الأدب المقارن كحقل معرفي .

الكلمات المفتاحية: سعيد علوش ، الأدب المقارن ، مدارس الأدب المقارن ، المنهج . الترجمة ، الهوية ، الأدب العام ، الأدب العالمي .

Abstract:

This study attempts to examine the efforts of the Moroccan comparator, Said Alloush.He is considered one of the pioneers of the comparative lesson in Arab criticism, armed with his cognitive study of the development of comparative literature, its schools, its extensions, its foundational moments and ending the crises experienced by comparative literature as a field of knowledge

***Key words**: Said Alloush, Comparative Literature, Schools of Comparative*

المؤلف المرسل: د/كمال بن عطية benataik@gmail.com

* قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة زيان عاشور بالجلفة (benataik@gmail.com)

♣ قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة زيان عاشور بالجلفة (prfulbachria@gmail.com)

المنارة للاستشارات

مقدمة:

لقد نمت الأبحاث و الدراسات المقارنة حول الآداب في العقود الأخيرة ؛ فانتقلت من الطابع الشكلي والمغلق للآداب التي تختص به المدرسة الفرنسية؛إلى السعي إلى بناء حوار بين المدرستين الفرنسية والأمريكية في إطار انفتاح على الثقافات الأخرى؛وقد تبنى بعض المقارنين العرب هذا التوجه الأخير الذي يراه الكثير من المختصين بأنه ثمرة التطور المعرفي والمنهجي في هذا الحقل من الدراسات؛فبسطوا فيه الحديث ونشروه في مؤلفاتهم ومقالاتهم، كما قاموا بتفعيل الندوات و الملتقيات والمؤتمرات مشاركة وتأطيرا حول تحولات البحث في الأدب المقارن. في هذا السياق يبرز الباحث المغربي **سعيد علوش** من خلال مساهمته في زرع مفاهيم مستلهمة في البدء من الثقافة الأدبية الغربية المقارنة بحكم تلقي أصول هذا العلم من منابعه على يدي رواده من أهل الاختصاص.

ولكي نفقه الأساس الذي بنى عليه **سعيد علوش** دراسته لابد من الوقوف على أهم آراءه و أفكاره حول كثير من قضايا الأدب المقارن؛ ابتداء من إشكالية المصطلح إلى النشأة ثم الخوض في مجالات الدراسة المقارنة؛ وتقديمه لمفاتيح معرفية و أخرى منهجية؛ إن على المستوى النظري أو على المستوى التطبيقي. وفق الإشكالية التالية : هل يمكن للإسهامات العربية في مجال المقارنات الأدبية عبر نماذج ومرجعيات متعددة أن تساهم في حركية المقارنة في المشهد العالمي،وكيف كانت آليات استقبال الدرس الأدبي المقارن في سياق الثقافة العربية من خلال نموذج سعيد علوش وفق منهج نقد النقد والتسلح بالدراسة الواصفة وتطبيق بروتكول القراءة النقدية من خلال مساءلة المصطلح والمنهج والأليات الإجرائية والنظرية والتطبيقية .

1- المكوّنات النظرية والتطبيقية للدرس العربي المقارن:

من خلال قراءة المنجز الذي قام به سعيد علوش يتبادر للذهن أنّ سيرة سعيد علوش العلمية والهوية الإبداعية تيسر للباحث قراءة أعماله المقارنية انطلاقاً من الخلفية الإيستمولوجية الكتابية في إطار الاشتغال بالأدب المقارني، يبحث في النصوص ويرصدها

المنارة للاستشارات

بالتفكيك والتركيب والتأويل، يصنّفها ويديرها، متخذاً من السياق مرجعاً ومن المذاهب مورداً، ومن الدرس فضاء خصيباً، ينشئ آراءه في الثقافة وفي الثقافة المغايرة ينسجها بالتناظر والتوازي والتداخل والتصادي، يوارزنها بعقل المقارن وبحكمة الراصد الرائي، متوسلا بنظرياته ليحط على محك القراءة والنقد، مستعينا بإسهامات المقارنين العرب، مفككا مدونتهم، كاشفا عن مظانها في مدارات المقارنة الفرنسية أو الأمريكية، أو السلافية، متدبرا ظواهرها وبواطنها وما بدا فيها من نسوخ باهتة أو من صناعة الذات.

وبالنظر إلى عمليات الرصد والتفكيك و التركيب و التأويل و التصنيف تتجلى المنهجية التي يستند عليها أنها تقوم على مرحلتين:" أولاها التأسيس لأدب مقارن في سياق ارهاصات النهضة العربية، وثانيها ارساء تقاليد جامعية في الأدب المقارني موصولة بالمتغيرات الثقافية العامة التي شهدتها الجامعة العربية بانفتاحها على الجامعات الغربية، ما يدل على وعي الباحث بدقائق تشكيل الدرس المقارني وبقدرته على تفكيك هوية هذا الأدب وفق مؤثراته، واندفاعاته وانكساراته. وهذا ما سيقضي إلى إنتاج مسارات رصد وتأمل وتقييم وتأويل. ولا يتم هذا التأويل إلاّ بآليتين آلية تفكيك تاريخ الأفكار الأدبية المعاصرة وآلية تركيب هرمينوطيقي للظواهر المدروسة وتنزيلها في مدارها الانطلوجي والإنساني الشامل.ولعل هذا النهج هو ما يحقّق خروجات سعيد علوش عن النظرة التاريخانية والنظرة البنيوية ذات الأفق المغلق ويكسر في الوقت نفسه أنساق المركزيات الثقافية ويعيد النظر في الخصوصية من منطلق ما يحكمها من أبعاد كونية "[1]

وبهذه القدرة التفكيكية لهوية الأدب والقدرة التركيبية للظواهر المدروسة يكون سعيد علوش قد سعى إلى إنتاج مشروع مقاربة جديد، يقطع مع المنهج التاريخي الكلاسيكي الذي يرصد الظواهر في تسلسلها الخارجي، دون الكشف عمّا يحكمها من جدل التأسيس والنفي والتأثر والتأثير، مقدما آراءه النقدية انطلاقا من الحفريات المعرفية التي قام بها ، كموقفه حول مقاربة "رونيه ويليك" التي تنحو منحى إقصاء ثقافات وآداب الأمم التي تنتمي إلى ثقافات الغرب والأمريكان. وبالنسق الرؤيوي نفسه عارض موقف "ايتياميل" القائل إن المقارنة غاية في ذاتها، مؤكداً الطابع الانطولوجي والكوني للمقارنة، عاقداً الصلة بين الهرمينوطيقا والمقارنة بقوله: "فالمقارنة من هنا هي حالة انطولوجية،

المنارة للاستشارات

ملازمة لسيكولوجية الأفراد والجماعات، ولا تخصّ مجال الأدب وحده، وهي بالإضافة إلى ذلك من العناصر المكونة لهرمينويتيك النثر، كفلسفة فهم وتأويل الحقل الايبستمولوجي"[2].

وانطلاقا من النظرة الشاملة للظواهر بأبعادها الأنطولوجية والكونية وصهر مناهج التفكيك والتأويل في بوتقة أركيولوجية المعرفة بحسّ تاريخي،ونقل المقارنة من المحدودية إلى الشمولية كميزة ، والنظر إلى الخاص والعام، والأصل والفرع، يقيم سعيد علوش بناء منهجه متنقلاً من تاريخ الأدب المقارن، عارضاً إرهاصات الأدب العام والعالمي، منتقداً رأي "**فان تيجيم**" ومنطقه التعصّبي الشوفيني الإقليمي العرقي داعياً إلى بناء حوارية بين الآداب الصغرى والآداب الكبرى، واقفا على تجربة المدرسة الفرنسية، متابعاً مسار تطوّرها ومنجزها ، مشيراً إلى قيمة المقارني **"روني ايتياميل"** لما أجراه في دراساته من حوار بين المدرستين الفرنسية والأمريكية في إطار انفتاح المدرسة على الثقافات الأخرى كاليابانية، خاصة، كم يقف على تجربة المدرسة الأمريكية التي أحدثت خلخلة في مسار الدرس المقارني، وتوجّهاته، وكانت أزمة أدب المقارن التي أعلنها **روني والاك** سنة 1958م بمثابة الصدمة الإيجابية التي فتحت الباب أمام مراجعة ثوابت المدرسة الفرنسية، والسعي إلى بناء حوار بين المدرستين الفرنسية والأمريكية بالجمع بين الأسلوب الفردي والدور الأساسي الذي يلعبه التأويل الأسلوبي.

ويمكننا الوقوف على مفاتيح معرفية ومنهجية على أساسها أقام سعيد علوش آراءه وتصوراته كالآتي[3] :

1. الوعي بـ "التأويل التاريخي المقارن" الذي يقتضي إدراك العناصر المعزولة في إطار تركيبي ومعقد.
2. اعتبار مكوّنات المقارنة ومكوّنات الأدب شكلاً أركيولجياً للمعرفة حيث تكون المقارنة الأركيولوجية .
3. القول بأنّ وصف الأشكال لا يتم إلاّ بمقارنتها ومعارضتها بالنظر إلى خصوصياتها.

المنارة للاستشارات

4. اندراج المقارنة العربية في إطار هذه الرؤية الأركيولوجية للمعرفة بالبحث عنها في لخطابات المتنوعة كخطاب النهضة والاستشراق والترجمة وتاريخ الأدب وتياراته وإشكالية التأثيرات.
5. توضيح ممكنات هذه الخطابات المندرجة في شواغل المقارنة بالكشف عن ظواهر إسقاطات خطاب على آخر، ما سمح بانتقال مناهج وتقنيات من الغرب نحو العالم العربي والعكس.
6. التساؤل الإشكالي عن طبيعة مكوّنات الأدب العربي في المجال المقارني: أبوصفها نمط كتابة بالمفهوم البارطي أم ذات طابع ابستيمي خاص بالعرب؟

وفي هذا السياق المعرفي والمنهجي يقف سعيد علوش منتقد مستغربا من بعض الأقلام التي تناولت ألف ليلة وليلة بمنطق تمجيدي لحضارة الشرق وللثقافة العربية للإسلامية وبشيء من الإلتذاذ معبرا عن الأثر المتبادل بين الثقافتين العربية والغربية مستعرضاً إشكالية "ألف ليلة وليلة" بقوله: "أما ألف ليلة وليلة، التي عرفت منها حكايات متعّددة خلال القرون (12 و13 و14)، فقد كانت بدورها مثار جدالات لاحقت أغلب التأليف الغربية، التي فسحت المجال بشكل رسمي لتأويل التأثير، مع ترجمة أنطوان جالان، لألف ليلة وليلة، وظهور "الخزانة الشرقية" وهو شيء أصبح رائجاً في الدراسات الحكائية، كما يعرض لها "فردريش فون ديرلاين" في الحكاية الخرافية."[4]

وبهذه النظرة الباحثة والمتفحصة يرصد سعيد علوش أيضاً، مختلف مواقف الدارسين العرب من المقامات وهي التي كانت موضوعاً رئيساً من موضوعات اهتمام محمود طرشونة في بحوثه المقارنية. وفي هذا الإطار يقول: "أمّا النموذج الثاني الذي لم يفلت من هدهدة الدارسين، فهو المقامات، التي قوبلت بروايات البيكارسيك، لا لتأثيرها المباشر فيها بل لأنّها تكوّن حساسية عربية تركت بصماتها على الرواية الأسبانية، وهي فكرة أثارها الناقد الأسباني أنخل فلورس، وتلقفها الباحث العربي، ليجعل منها مركباً لموازنة غير متكافئة، بين المقامة والبيكارسيك"[5].

المنارة للاستشارات

وعلى هذا النهج يقيّم سعيد علوش في إطار نقد النقد بعض الدراسات العربية المقارنة التي اهتمت بهذا الموضوع واضعاً حدوداً لهذا التقييم، مشيراً إلى الآليات المعتمدة في دراسات بعض المقارنين في وضع يفتقرون فيه للمعرفة الدقيقة، بقوله: "فلو انطلق الدارسون العرب، من الأبحاث المستوفية لموضوعات المقامات، في إطار الأدب الوطني والقومي، لأمكن بحق الوصول إلى نتائج تقابل ما قام به الغربيون فيما يخصّ فن البيكارسيك" [6].

وفي إطار نقد النقد يؤكد سعيد علوش على ضرورة توفر المقارنة الموضوعية القائمة على الحفر في الظواهر المقارنية المدروسة والتخلّص من المواقف الايديولوجية الجاهزة وتجاوز النزعة التبسيطية التي تسود هذه النماذج والتي لم تستوف شروط الدرس المقارني، معبرا عن ذلك قائلا : " ... بحيث لا يبلغ معالجة المواضيع الأساسية، إلاّ وهو مجهد، يكتفي بإسقاط مجموعة من الأحكام الجاهزة، في الأعمال الغربية، مما يحول دون تحقيق تأويلات في المستوى المطلوب" [7].

إن أبرز ما وقفنا عليه من خلال تحليل رأي سعيد علوش وأفكاره كما تجلت في نماذج أعماله المقارنية يمكن حصره في النقاط التالية[8]:

1-إنّ الأدب المقارن مهما أطلقنا عليه صفة العلم الذي يحتكم إلى ضوابط أو صفة الفن بوصفه فرعاً من فروع الدراسات النقدية، فإنّ تاريخ تطوّره وتفرّعه إلى مذاهب ومدارس حسب المنشأ وطبائع المعرفة المتصلة به يجعل وظيفته تتجاوز ظواهر التأثر والتأثير، ومن ههنا يكتسي الأدب المقارن قيمة نوعية بوصفه مكمّلاً لتاريخ الأدب أوّلاً، وبوصفه فرعاً من فروع الدراسات الأدبية والنقدية ثانياً، يؤثر فيها ويتأثر بها، ومن ثم كان قاموس مناهج النقد الحديث حاضراً بجلاء في مؤلفاته النقدية المقارنية من قبيل بعض مفردات النقد الحديث المشتقة من الإنشائية أو من قاموس جمالية التقبل أو من مفاهيم سوسيولوجيا الأدب والأنتروبولوجيا، فضلا عن حضور لافت للنظريات

الفلسفية الحديثة وللعلوم الإنسانية عامة، فكلها مصطلحات قائمة على قوانين التبادل والموازنة بين ظاهر النص وباطنه وحاضره وغائبه .

2-إنه يؤكد تلميحاً وتصريحاً إلى أنّ كل عملية مقارنة تقتضي من المقارن استحضار مكونات المنهج والوعي بوسائله ومقاصده ولعل من بين أسئلته: ماذا نقارن وهل نقصر المقارنة على الظواهر الأدبية التي تقدّر نجاعة مقاربتها؟ وكيف نمارس عملية المقارنة انطلاقاً من شروط محدّدة ووسائل معينة ومقاصد ثابتة؟

إنّ هذه الأسئلة وغيرها هي من مفاتيح الدرس المقارني التطبيقي وهو درس يجب أن يبنى في تصوراته[9]:

أ. على فهم مغاير لعلاقة المؤثر والمؤثر فيه القائمة حسب الاعتقاد السائد على الفاعلية من جهة المؤثر والمفعولية من جهة المؤثر فيه.

ب. على نفي فكرة التبعية أو الهيمنة الثقافية فليس كل أخذ أو تأثر هو انضواء بالضرورة في ثقافة الآخر أو هو شكل من أشكال الاستلاب، وقد أثبت التلاقح الحضاري بين الأمم في نطاق الندبة والوعي بالحرية هذه الخاصية التي تتحول فيها الوسائط المعرفية إلى حوافز لتحقيق النقلة الضرورية للذات في علاقتها بتاريخها.

ت. على ضرورة مواكبة مستحدثات مدارس النقد المقارني والربط بين الظاهرة العلامية في بنيتها ومكوناتها الأصلية وبين نسقها التأويلي العام ، و حيث يكون كل خطاب قابل للمقارنة بشروط الدرس المقارني مجالا حيوياً للتفكيك والتركيب والإبانة عن المؤتلف والمختلف من ظواهر ما يرسب في الخطاب من أثار التناص وما يتشكل من جامع النصوص.

ث. على ضرورة أن يكون للباحث المقارني تصور في خصوص المنهج والأسلوب المقارني الذي ينتهجه والذي به يتميز عن سائر المقاربات الأخرى وفي هذا الإطار يشير سعيد علوش إلى قضية الجمع بين المناهج، مبرراً دور النقد الموضوعاتي في حل الإشكال

المنارة للاستشارات

المنهجي وذلك عندما يدمج التصوّرات والمفاهيم والأطروحات في صياغة تصبّ أساساً على النصّ المدروس.

2/ آليات المقارنة وأبعادها في جهود "سعيد علوش" :

يحاول سعيد علوش أن يحيد طبيعة الأدب المقارن بأنه يجب أن ينظر إليه من ناحيتين هما: الطابع الفلسفي للأدب المقارن، والطابع التركيبي للأدب المقارن؛ أما من الناحية الفسلفية، فيمكن أن نتبين الأدب المقارن في نقطة تقاطع بين ثلاثة مباحث عامة، هي مبحث الأخلاق ومبحث الجمال ومبحث المعرفة، وهذه التقاطعات تجعله يتضمن ثلاثة أبعاد [10]:

1. البعد الأخلاقي المتمثل في المقصديات الفكرية والإيديولوجية التي توجه الأدب المقارن نحو غايات الإنسان وشرطه الوجودي.
2. البعد الجمالي المتمثل في التصورات الإستطيقية التي يستمدها الأدب المقارن من موضوعه الذي هو الأدب، بصفته فناء وبصفته مرتبطا بالفنون الأخرى.
3. البعد الإيبستمولوجي المتمثل في البناء العلمي والجهاز المنهجي الذي يحرك به الأدب المقارن مواضيعه التي يحللها وقضاياه التي يعالجها ومجالاته التي يدرسها.

فالأدب المقارن لا يمثل العلم أو يدعيه بقدر ما يتجه نحوه ويقترب منه، فهو لا يقدم نفسه باعتباره مبحثا علميا بسيطا، وإنما بصفته مبحثا مركبا لحسابه علوما ومباحث أخرى عديدة ومختلفة، فكل تساؤل عن درجات العلمية في الأدب المقارن، ينبغي أن يراعي طبيعته التركيبية واشتغالاته المتعددة والمتنوعة.

أما من ناحية الطابع التركيبي للأدب المقارن: فيعتبر أنه لا يمكن أن نتصور الأدب المقارن من الناحية الإيستمولوجية إلا بصفته مبحثاً تركيبياً عاماً، يتميز بكونه في نفس الوقت مبحثاً متعدد التخصصات ومتقاطع التخصصات وعابراً للتخصصات، ذا طابع موسوعي، وحين نقول موسوعي فإننا نقصد الجانب المعرفي الذي يجعله يستعمل النظريات الأدبية والثقافية واللسانيات وتاريخ الفلسفة والدين والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، فيدرس ميادين من مثل: دراسة المصادر والتأثيرات، دراسة التاريخ الأدبي، دراسة الأدب، دراسة النقد، دراسة الأفكار والطباع، دراسة الأشكال والأجناس الأدبية، دراسة الرحلات، دراسة الترجمة، دراسة النظريات الأدبية والمناهج النقدية،

المنارة للاستشارات

دراسة الأساطير، دراسة الأدب الشعبي الشفوي، دراسة الآداب الهامشية (الأدب الطفلي والأدب المؤنث)، دراسة علاقة الأدب بالفنون (التشكيل – السينما - ... إلخ)، دراسة الآداب الموازنة، دراسة الاستشراق (والاستغراب)، دراسة النهضة والتطور، دراسة التأثيرات والتأثرات...إلخ، ذو اتجاه أفقي؛ لأنه فرضيا ينطلق من نتائج المباحث الأخرى في مجال الأدب والعلوم الإنسانية، فثمار هذه المباحث هي ما يشكل أرضية الأدب المقارن التي ينطلق منها للعبور من المحلي إلى الكوني، بحثا عن نتائجه الخاصة التي تكون بالضرورة أكثر تركيبيا وأشد تعقيدا والتي تكون مقصديتها كونية ومداها عالميا[11].

وقد عبر إدغار موران عن هذه الخصائص الثلاث مجتمعة، حين قال: إن "تاريخ العلوم ليس هو فقط تاريخ بناء وتبلور المباحث، ولكنه أيضا تاريخ انفراط الحدود بين المباحث (المعارف) وانتقال القضايا من مبحث إلى مبحث آخر، وانتقال التصورات وتشكيل مباحث هجينة ستنتهي بأن تستقل، إنه أيضا تاريخُ تَشَكُّلِ مُرَكَّباتٍ، مباحث مختلفة وتتداخل" [12]. وهذا ما يجعله عبارة عن "يوتوبيا منهجية حقيقية" كما وصفه "**هنري ياجو**"[13].

والمتتبع للمنجز العلمي الهائل الذي قام به سعيد علوش من خلال الكتب التي ألفها والتي بلغت ستة عشر كتابا في الأدب والرواية والنقد، فضلا عن الكتب الجماعية والمقالات المنشورة في المجلات ، بالإضافة إلى تكوينه الخاص في جامعة السوربون العريقة، وبذلك ساهم في إعداد أرضية علمية ساهمت في تطوير مختلف المباحث التي تشكل أرضية الأدب المقارن ولغايات منهجية يمكننا تمييز ثلاث مستويات في هذا المشروع معتمدين الأبعاد الفلسفية للأدب المقارن[14]:

1. مستوى الأهداف والمقاصد، التي ترتبط رأساً باستراتيجية مشروع سعيد علوش، والتي تتمفصل على الصعيد الأفقي حسب كل كتاب على حدة، وهذا المستوى يمكن أن يخضع للتحليل انطلاقاً من المقولات المرتبطة بأخلاق العلم ومقاصده. فقد أكد **فرنسي بيكون** منذ مطلع القرن السابع عشر، أن هدف العلم هو "تحسين مصير الإنسان فوق الأرض" [15]، والأدب المقارن كما قال دافيد هايز "يهتم بالأدب، ليس فقط لأنه انعكاس للثقافات، بل لأنه ظاهرة إنسانية كونية" [16].

المنارة للاستشارات

2. مستوى المجالات والموضوعات، التي تشكل مادة الأدب المقارن، سواء تعلق الأمر بالأدب في علاقته بذاته (أي بالأدب) أو في علاقته بالفنون الأخرى (الصورة، التشكيل، السينما، الموسيقى،...).
3. أما المستوى الثالث، فهو متعلق بالآليات المنهجية التي تحرك هذا المشروع وتحقق حركاته من دائرة الموضوعات إلى دائرة المقاصد، يتعلق الأمر هنا بالمستوى الإيبستمولوجي، الذي تشكله المباحث العلمية والفروع المعرفية والمقاربات المنهجية داخل هذا المشروع.

وفيمايلي يمكن تحديد الآليات المنهجية الكبرى التي تحرك هذا المشروع، مع الإشارة إلى وظائفها ومواقع اشتغالها داخل هذا الجهاز المنهجي العام للمشروع[17]:

2/أ.الآلية البيبليوغرافية:

تتمثل الآلية البيبليوغرافية في توثيق المنشورات المتعلقة بالمواضيع والمجالات المدروسة، وقد شكل التوثيق البيبليوغرافي هاجساً علمياً لصيقاً بالأستاذ سعيد علوش في مختلف كتبه، فليس له كتاب يخلو من حيز بيبليوغرافي يجرد فيه الكتب والدراسات المتعلقة بموضوع ذلك الكتاب، لقد كان سعيد علوش على وعي كبير بأهمية البيبليوغرافية كآلية منهجية لولوج مختلف مجالات الأدب المقارن، ؛ وذلك لكي يستوفي ذلك المجالات والمواضيع حقها من البحث والتقصي من جهة؛ ومن جهة أخرى لكي يضع قارته أصورةمام ال الكاملة أو شبه الكاملة لذلك الموضوع، فتاح منه لأبواب القراءة والبحث والتوسع، لذلك شكلت بيليوغرافياته قيمة مضافة داخل كل كتاب من كتبه، فضلا عن الكتاب الذي خصه بهذا الغرض، وهو "ببيليوغرافيا الدارسات الأدبية الجامعية بالمغرب".

ففي كتاب "ببيليوغرافيا الدراسات الأدبية" ،يتبين لنا الخلفية المنهجية المعتمدة والأدوات الموظفة الإجرائية الموظفة فيه، فقد تم تقديم المادة البيبليوغرافية وفق أبواب وتصنيفات دقيقة، هي: الدراسات شبه المونوغرافية، والأنواع الأدبية، والأدب الشعبي، تاريخ الأدب، والنقد والتنظير، هذه الأبواب قد تم تصديرها ببيبليوغرافيا الدراسات الأدبية المغربية، وتمت تقفيتُها ببيليوغرافية الموضوعات، ثم تم تذييل ذلك كله بفهارس للدراسات والمقالات والمؤلفين والتخصصات.

2/ب.الآلية البيوغرافية:

تتمثل الآلية البيوغرافية في استحضار المعطيات المتعلقة بالأدباء والمؤلفين المدروسة أعمالهم، وذلك في شكل تراجم ودلائل فهارس، وقد كانت هذه المعطيات حاضرة في العديد من كتب سعيد علوش نظرا لما تقدمه من فوائد في الإحاطة بالمواضيع المدروسة من خلال المعطيات المتعلقة بالمؤلفين والأعلام.

من ذلك ما نجد في كتاب "الرواية والإيديولوجية" من معطيات متعلقة بتسعة وعشرين روائياً مغربياً، ومن ذلك المعطيات البيبليوغرافية المتعلقة بإميل حبيبي وفهارس أعلام الأدب المقارن العرب وغير العرب، وفهرس الدارسين والنقاد الجامعيين المغاربة.

2/ج.الآلية الأنطولوجية:

تتمثل الآلية الأنطولوجية في استحضار المعطيات النصية للمجالات والمواضيع المدروسة، وذلك في شكل مقتطفات ونماذج، بالإضافة أحياناً إلى حوارات ومقابلات مع أدباء ومؤلفين ومن ذلك ما يلي:

-أنطولوجيا الرواية بالغرب العربي، من سنة 1960 إلى سنة 1975، وهي عبارة عن مقاطع مختارة من تسع وعشرين رواية مغاربية (اثنتا عشرة رواية تونسية، وأربع عشرة رواية مغربية، وثلاث روايات جزائرية)، وقد حرص المؤلف على أن يضع في بداية كل مقطع صورة الروائي وصورة غلاف الرواية التي أخذ منها ذلك المقطع، كما دعم المؤلف هذه الأنطولوجيا بحوارات مباشرة مع الروائيين المغاربيين انطلاقا من سؤال، لماذا تكتب؟.

-أنطولوجيا الأدب المقارن، نقل فيها مقدمات اثني عشر متابا من الكتب الرائدة في الأدب المقارن على المستوى العربي.

-أنطولوجيا النقد الموضوعاتي، ترجم فيها مقدمات سبعة كتب لرواد النقد الموضوعاتي في فرنسا.

-أنطولوجيا الترجمات المغربية لنصوص أدبية مغربية خلال النصف الأول من القرن العشرين.

المنارة للاستشارات

2/د.الآلية المعجمية:

تتمثل الآلية المعجمية في العمل المصطلحي المرتبط بالمجالات والمواضيع المغربية ويكاد لا يخلو أي كتاب لسعيد علوش من ثبت معجمي يمثل مساهمة قيمة في العمل الاصطلاحي المرتبط بموضوع ذلك الكتاب، وبالأدب المقارن بصفة عامة، ومن ذلك "معجم مصطلحات الفن التاسع"، حيث تم التعريف بمئة وأربعين (140) مصطلحاً مع تثبيت صياغتها الفرنسية ومُقابِلاتها العربية.

وقد خصص علوش للعمل المعجمي كتابا قائما بذاته هو "المصطلحات الأدبية المعاصرة"، حيث عرف سبعمئة وثلاثة وعشرين (723) مصطلحا أدبيا وذيلها بفهارس ومسارد مزدوجة اللغة.

2/هـ.الآلية الترجمية:

اهتم علوش بالترجمة على مستويين: مستوى الممارسة ومستوى الدراسة والتحليل، فعلى مستوى الممارسة ترجم كتاب "المقاربة التداولية"، وكتاب "أزمة الكتاب المقارن"، وأشرف على ترجمة كتاب "نقد الأإكار الأدبية"، كما ترجم مقدمات كتب جان بيير ريشار "الشعر والأعماق" و"دراسات حول الشعر المعاصر" و"القراءة المصغرة"، وترجم مقدمة وتصدير كتاب "الأدب والحساسية" لجورج بولي.

أما على مستوى دراسة الترجمة، فقد اضطلع بمشروع هام درس فيه الترجمة الأدبية في المغرب منذ بداية القرن العشرين إلى أواخره، وقد تجسد ذلك في كتابين هما: "خطاب الترجمة الأدبية من الازدواجية إلى المثاقفة"، الصادر سنة 1990، و"شعرية الترجمات المغربية للأدبيات الفرنسية"، الصادر سنة 1991.

وقد لاحظ من خلال تتبعه أن أغلب الترجمات المغربية في النصف الأول من القرن العشرين كانت إبداعية، أما ترجمات النصف الثاني من القرن العشرين فكان أغلبها نقدياً.

2/و.الآلية التأريخية:

تتمثل الآلية التأريخية في تأريخ التعابير الإنسانية وتطورها عبر الزمن بفعل جدليات التأثير والتأثر، وقد تم تشغيل هذه الآلية في مختلف أعمال سعيد علوش، ففي كتاب "إشكاليات التيارات والتأثيرات الدبية في الوطن العربي"، الصادر سنة 1986، ركز

المنارة للاستشارات

المؤلف بشكل لافت على تاريخ الأفكار، مبرزاً أهميته بالنسبة إلى الأدب المقارن وبالنسبة إلى تاريخ الأدب والنقد الأدبي على السواء، بل إنه اضطلع عملياً في هذا الكتاب بدراسة ثلاثة محاور متراكبة من تاريخ الأفكار؛ فقد درس أولا تاريخ الأفكار العربية، مبرزا أهميته وضرورته لكل بحث في مسألة التيارات الأدبية وتأثيراتها.

وفي الكتاب الرائد حول مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، شغل سعيد علوش آلية تاريخ الأفكار لاستجلاء جدلية النهضة العربية من المنظور المقارن، ولفحص ظاهرة الاستشراق والمثاقفة والتيارات الأدبية والتأثير والتأثر، وهي كلها مواضيع تدرس على أرضية تاريخ الأفكار.

فهو يرى أن فهم الظواهر التحديثية في العالم العربي وتأويلها، لا يتم إلا عبر "فهم تاريخ الأفكار الأدبية المعاصرة كعناصر مفككة لا كقوالب جاهزة"، لتأتي بعد ذلك محاولة تركيب هيرمينوطيقية، في إطار أنطولوجي وكليات إنسانية.

2/ز.الآلية النقدية:

تتمثل الآلية النقدية في اشتغالات سعيد علوش داخل حقل النقد الأدبي، الذي يعني هنا دراسة الأدب من خلال نصوصه أو قضاياه أو ظواهره، فالنقد الأدبي (والدراسة الأدبية عموما) آلية من آليات الأدب المقارن يشغلها الباحث ويحركها نحو مقاصد الدراسة المقارنة، وذلك وعيا منه أننا لا يمكن أن نبحث علاقة النص بالنصوص الأخرى، إن لم نعرف أولا خصوصيات هذا النص وفرادته.

ففي كتاب "الرواية الإيديولوجيا في المغرب العربي"، الصادر سنة 1983، درس علوش حوالي تسع وعشرين رواية لـ 29 روائيا مغاربيا، وما يرتبط بها من بيانات وحوارات، وقد انطلق في ذلك من البنيوية التكوينية، حيث قابل بين المعطيات النصية والمعطيات التاريخية..

ويمكن إن تتبعنا اشتغال هذه الآلية النقدية في مشروع سعيد علوش أن نتبين دورها الفعال في إنضاج المواضيع الأدبية وتحريك آليات الأدب المقارن الأخرى.

2/ح.الآلية الميتا-نقدية:

تتمثل هذه الآلية في اشتغالات سعيد علوش في إطار نقد النقد، والتي نراها حاضرة في مختلف كتبه، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، وبما أننا نهدف إلى الإشارة والتمثيل

المنارة للاستشارات

يمكن أن نقتصر على كتب معينة شكل نقد النقد فيها إطارا عاما يتضمن باقي الاشتغالات والآليات:

(كتاب هيرمينوتيك النثر الأدبي)، الذي يعالج فيه المؤلف تصورات ونظريات عديدة متعلقة بقضايا الفهم والتأويل (هوسرل، ريكور، هيدغر، ...إلخ).

كتاب (النقد الموضوعاتي)، الذي يعالج النظريات والتصورات المؤسسة للمنهج الموضوعاتي في النقد الأدبي، وقد أشار المؤلف في مقدمته إلى أنه يأتي لتوسيع فضاء السؤال حول أبعاد وعمق وصلابة المقاربات الأدبية التي تعصف بنا كسلطة معرفية ووجودية لا تخدم سلطة غير هذا الكائن الأنطولوجي الكامن في الدرس الأدبي.

كتاب (نقد ثقافي أم حداثة سلفية)، الذي عالج فيه النقد الثقافي، وناقش المنظور الشرقي للدراسات الثقافية وراديكالية النقد الثقافي،وصناعة النظرية الثقافية....

والمتتبع لاشتغال هذه الآليات وطبيعة عملها يجدها في الأصل مباحث وفروع معرفية تَمَّ دمجُها في مبحث أوسع، هو مشروع الدكتور سعيد علوش في الأدب المقارن،فمثلا الآلية النقدية هي مجال وحقل معرفي يختص بمعرفة خصائص النص وتقييمه، والآلية التأريخية حقل معرفي مختص بالتأريخ للتعابير الإنسانية وتطورها،والأمر نفسه ينطبق على باقي الآليات،إذ تحولت إلى آليات منهجية متداخلة تتجه صوب الإستراتيجية العامة للمشروع، فكل آلية من هذه الآليات الثمانية تشتغل وفق منطق منهجي خاص، وتتطور بتطور المشروع وتتفاعل بتفاعله مع حركية المناهج في مجال الأدب والعلوم الإنسانية، إن هذه المباحث لم تعد تشتغل لحساباتها ومن أجل أهدافها الخاصة بقدر ما هي هنا في خدمة مقصديات الأدب المقارن في علاقته بالأدب بصفة خاصة أو في علاقته بمختلف العلوم.

خاتمة (إعادة تركيب):

كخلاصة عامة من خلال تتبع المنجز النقدي والأدبي وكذا قراءة مختلف أفكار سعيد علوش و آراءه المبثوثة في كتاباته ومقالاته حول الأدب المقارن يمكننا أن نصل إلى تصور عام لمشروع استوفى كل الشروط والآليات المنهجية التي تجعله بحق أن يوسم بالمشروع المتكامل و الذي توفرت فيه كل عناصر تشكله ؛ وهي على النحو الآتي :

أ-ضبط الأهداف والمقاصد:

لقد كان للاهتمام بأسئلة الأدب المقارن في الدراسات الغربية أثره البالغ و انعكاساته عند الباحثين العرب، وفي الجامعة المغربية حمل الأستاذ سعيد علوش على عاتقه هم البحث و الإجابة عن الإشكالات التي صاحبت هذا البحث الجديد في الأدب العربي بأن توجه إلى الديار الباريسية للتخصص في هذا المجال المعرفي بصورة أكاديمية متطورة حسب آخر المناهج الفرنسية في هذا الاختصاص المعرفي.

إنّ وعي سعيد علوش بالعلاقة الجدلية بين دراسة مكوّنات الأدب العربي الحديث ومنهجية دراسة الأدب المقارن، جعله يصل إلى أن البحث عن الهوية العربية الأدبية هي المسعى الأول والرئيس في جهوده الأكاديمية، فهو لا يكاد يجعل فرصة تمر دون التفكير بهذا الهاجس النظري والمنهجي في كتاباته النقدية والفكرية،وفي هذا السياق نجده في أطروحته الجامعية الموسومة بـ"مكونات الأدب المقارن في العالم العربي" أساسا وفي مختلف الدراسات في الأدب المقارن يلاحظ وضوح الرؤية والمقاصد والمنهج. فمن جهة المقاصد كان هدف مبحثه العلمي إلى : معرفة مكونات الدرس المقارني العربي وحوافزه من جهة،والإلمام بمصادر المقارن العربي واهتماماته من جهة ثانية.وحدّد دوافعه المزدوجة في محورين :

محور (رسم خريطة لمرحلتين عربيتين،الأولى نهضوية عفوية والثانية جامعية أكاديمية ممنهجة).

ومحور ثان يتمثل في البحث عن تأويل ممكن لكل هذه الظواهر التحديثية عبر فهم الأفكار المعاصرة في وضعها التفكيكي ومحاولة تركيب هرمنوتيكية في إطار أنطلوجي وكليات إنسانية.وقد توسّل في هذا المحور إنجاز مقاربة منهجية واصطلاحية تحدّد حدود كل مدرسة وتداخلاتها وافتراقاتها، مؤكداً أن الدرس المقارني لم يعد يحتاج إلى مروجين ووسطاء، بقدر ما هو في حاجة إلى التخلي عن وهم غربية المقارنة، وشرقية استهلاكه.

وقد حملت هذه المقاصد سعيد علوش إلى القول بخصوصية الأدب المقارن بوصفه علما أراد منه مؤسسوه أن يكون من مقاصده الكشف عن هوية الذات والكتابة في علاقة بكتابة الآخر في سياقات معرفية وحضارية وثقافية معلومة، مما يجعل هذه الخصوصية مندرجة بالضرورة في الروح الإنسانية العامة، أي في ضوء انتسابها إلى

المنارة للاستشارات

التراث الإنساني عامة دون محو طابعها الأصيل، وفي هذا عبر علوش عن ضرورة الاطلاع على ثقافات الغير من منطلق أن الثقافات الإنسانية تحمل عناصر مشتركة ينبغي الوقوف عليها في تاريخ التجربة الأدبية العالمية، وبهذا وحده نستطيع أن نقارن ما لدينا من رصيد ثقافي بما لدى الآخرين، فاللقاء مع الآخر على الصعيدين الأدبي والفكري هو القمين الذي بجعلنا نتجاوز صدمة النهضة ، فهذا الوعي المغربي بالآخر والتعامل معه وعي قديم في الزمن السياسي والثقافي المغربي، وقد يستشف المرء علامات دالة على ذلك في خطاب الرحلات وكتابات المبعوثين والسفراء منذ قرون طويلة، وإن من شأن هذا اللقاء الأدبي السلمي أن يصحح أخطاء الجغرافيا الوهمية التي توهمنا الآخر فيها .

ب-تحديد المجالات والموضوعات:

يعتبر جهد سعيد علوش فيما قدمه من أبحاث ودراسات جهدا في تاريخ الأدب المقارن بامتياز، كما لا يغفل جهده عن حقل النقد الأدبي، الذي يعني هنا دراسة الأدب من خلال نصوصه أو قضاياه أو ظواهره، فهو يرى في جل دراساته أن الخطاب النهضوي وما جاء بعده في المجال الأدبي لا يكفي للوقوف على الإنتاجية الأدبية العربية،فقد فهم أن معضلة الأدب المقارن لا تفهم اليوم إلا في السياقات الكبرى لعلاقة القول الأدبي بغيره من أنماط التعبير الفني والسينمائي والكاريكاتوري،فنراه اليوم يعالج قضايا التأثر والتأثير من زوايا العلاقات المركبة والمعقدة بين هذه الخطابات كلها.

يبحث سعيد علوش في دراساته المعمقة حول الأدب المقارن في توجه المغاربة إلى معرفة الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة أولا ثم عن طريق الإطلاع المباشر على تلك الثقافات في لغاتها الأصلية و بيئاتها المباشرة .فهو يرى أن الترجمة ظلت دوما الوسيلة الأساس التي تسمح باللقاء الثقافي و المعرفي بين الشعوب.و لقد فهم المغاربة هذا الأمر فكان تشجيع الترجمة إنجازا نسبيا ساعد على الانفتاح الثقافي و الأكاديمي . فظهرت بعض الجهود الترجمية في الشعب المختلفة .

فقد درس أولا تاريخ الأفكار العربية، وجعله أرضية لدراسة تاريخ الأدب العربي، ثم عطف على ذلك كله دراسته للتيارات الأدبية عند العرب؛فأبرز في نهاية المطاف أهمية تاريخ الأفكار وضرورته لكل بحث في مسألة التيارات الأدبية وتأثيراتها.

سعيد علوش على وعي كبير بأهمية المجهودات البيبليوغرافية و الدراسات الأنطولوجية في استحضار المعطيات النصية للمجالات والمواضيع المدروسة،وكذا الدراسة البيوغرافية في استحضار المعطيات المتعلقة بالأدباء والمؤلفين المدروسة أعمالهم،كما نجده في أعماله يهتم بالثبت المعجمي والذي يمثل مساهمة قيمة في العمل الاصطلاحي المرتبط بأي موضوع يعالجه ويسبر أغواره، إذ نجده يقدم في معجمه ما يقرب من 750 مصطلحا من مصطلحات النقد الأدبي المعاصر التي تتباين في مألوفيتها و غرابتها دون أدنى ادعاء لقول كلمة الفصل فيها.

وفي مجال النقد يعتقد أن الحديث عن مستويات الخطاب النقدي نجدها متقاطعة مع قنوات معرفية متعددة في العلوم الإنسانية،محاولة رفد الجانب الأدبي بمستجدات مربوطة بالأدب المقارن والترجمة، وهي علاقة جدلية لأن الخطاب لا يمكن أن يستغني عن المقارنة والترجمة في عصر تعدد المعارف والمفاهيم.

ج-وضوح المنهج:

لا يغيب عن ذهن سعيد علوش أنّ كل عملية مقارنة تقتضي من المقارن استحضار مكونات المنهج والوعي بوسائله ومقاصده ولعل من بين أسئلته: ماذا نقارن وهل نقصر المقارنة على الظواهر الأدبية التي تقدّر نجاعة مقاربتها؟ وكيف نمارس عملية المقارنة انطلاقاً من شروط محدّدة ووسائل معينة ومقاصد ثابتة؟ متوسلا سبيل النظرة الشاملة للظواهر بأبعادها الأنطولوجية والكونية محاولا صهر مناهج التفكيك والتأويل في بوتقة أركيولوجية المعرفة بحسّ تاريخي.

في دراسة سعيد علوش للأدب المقارن نجده قد راوح خطابه الأكاديمي بين مناهج أبرزها المنهج التاريخي الكلاسيكي الذي يرصد الظواهر في تسلسلها الخارجي، والذي يبحث عن المنطق الدياكروني والتعاقبي لتشكل الخطابات في الثقافة العربية، والمنهج البنيوي الذي حلل به تلك الخطابات، كما فعل في مقارنته لخطاب الصحافة العربية، ويكسر في الوقت نفسه أنساق المركزيات الثقافية ويعيد النظر في الخصوصية من منطلق ما يحكمها من أبعاد كونية، على نهج من التفكيك والتركيب، والنظر إلى الخاص والعام، والأصل والفرع، يقيم سعيد علوش بناء منهجه متنقلاً من تاريخ الأدب المقارن، عارضاً إرهاصات الأدب العام والعلمي، منتقداً رأي "فان تيجيم" ومنطقه التعصّبي داعياً إلى

المنارة للاستشارات

بناء حوارية بين الآداب الصغرى والآداب الكبرى، مؤكدا على ضرورة توفّر المقارنة الموضوعية القائمة على الحفر في الظواهر المقارنية المدروسة والتخلّص من المواقف الإيديولوجية الجاهزة ببسط الحقائق دون تبخيس أو تمجيد.

الهوامش:

[1] -خالد الغريبي، منزلة النقد العربي المقارن بين التنظير والتطبيق، ضممن كتاب المقارنون العرب اليوم، تنسيق ادريس اعبيزة، القسم الأول،دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2014، ص 28

[2] - سعيد علوش، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، لبنان،سوشبرس،الدار البيضاء، ط1987،1ص 26.

[3] - خالد الغريبي، منزلة النقد العربي المقارن بين التنظير والتطبيق، ضممن كتاب المقارنون العرب اليوم، مرجع سابق ، ص31.

[4] - سعيد علوش، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي،مرجع سابق ، ص 546.

[5] - المرجع نفسه، ص 549.

[6] - المرجع نفسه،ص 552.

[7] - المرجع نفسه، ص453.

[8] - خالد الغريبي، منزلة النقد العربي المقارن بين التنظير والتطبيق، ضممن كتاب المقارنون العرب اليوم،مرجع سابق ،ص41.

[9] - المرجع نفسه ،ص 41-42.

[10] - عبد الواحد المرابط: آليات الأدب المقارن، ضمن كتاب المقارنون العرب اليوم ،مرجع ساب، ص 259.

[11] - المرجع نفسه، 260.

[12] - Edgar Morin, articuler les disciplines, communication au colloque interdisciplinarité, organisé par CNRS, en 1990 نقلا عن عبد الواحد المرابط: آليات الأدب المقارن، ضمن كتاب المقارنون العرب اليوم ، ص 259.

[13] - دانييل، هنري ياجو، الأدب العام المقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997م، ص 36.

[14] - عبد الواحد المرابط: آليات الأدب المقارن، ضمن كتاب المقارنون العرب اليوم، مرجع سابق،ص265.

[15] - آلان شالمرز، نظريات العلم، تر: الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م.، ص 13.

[16] - David Hayes universitaires .ca -, affaires universitaires : www. Affaires

[17] - عبد الواحد المرابط: آليات الأدب المقارن، ضمن كتاب المقارنون العرب اليوم، مرجع سابق ، ص 266 / ص 270.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

المنارة للاستشارات